

## آسيا الصغرى وايران

لم يشمل الشرق الادنى ، باستثناء مصر وبلاد ما بين النهرين ، مساحات شاسعة من الاراضي الخصبة ، إذ لم توجد فيه انهار كبيرة ذات فيضانات رسوبية . ولم تستهو هذه الاقطار بني آدم . وعندما كانوا يمتازونها لم يغرم شيء للاستقرار فيها وتكوين جماعات مستديمه . وهكذا لم تظهر فيها حضارات متطورة إلا في زمن لاحق جداً . لا بل هناك عوامل كثيرة اخرى لهذا الواقع سببتها على مدى واسع قلة عطاء الارض . ولم تبلغ قط اي من هذه الحضارات عظمة وقوة ومدى حضارتي مصر وبلاد الرافدين . ولم تجد اي منها مهداً فسيحاً ينتج خيرات مماثلة لخيرات هذين القطرين . وهكذا فانها لم تلد بصورة عفوية كما غدت الحال هناك ، ولم تعبر بشكل نقي عن الفضائل والميول الخاصة بشعب معين . فبرزت من ثم هذه الحضارات مركبة العناصر ومتشعبة الاصول لانها نشأت عن احتكاكات ولدها سيول الهجرات او المبادلات التجارية . وغدت هذه الحضارات اكثر ميوعة واقل ديمومة . وقد شابت كلا منها نواقص كثيرة ، ولم تملك مجتمعة او منفردة الامكانيات المادية او المعنوية او الوقت للتغلب عليها . ولم تترك هذه الحضارات للخلف في الزمان والمكان إلا إرثاً اقل عظمة وكالاً إذ غدت هي نفسها في كل المجالات دون الحضارتين اللتين سلف ذكرهما شروقاً ونبوغاً . ونتيجة لهذه الحقيقة خلفت آثاراً دون آثارهما : ولا تزال الى يومنا هذا نستشف جوهرها جاهلين مقوماتها وذلك مع ما حققته العلوم الاثرية واللغوية من اكتشافات باهرة .

وتتصل بعض هذه الحضارات بدول شجعت هممتها القوى لتدعيم مركزها الداخلي او توسيع مداها الخارجي لتعافظ على كيانها ، وذلك على غرار ما جرى لزميلتيها في مصر وبلاد الرافدين . وهكذا نجد انفسنا مضطرين لجمعها معاً هنا وان اختلفت عناصرها واهدافها . واستناداً الى النجاح الكثير او القليل الذي لاقته فانتنا نصنفها مع الحضارات التي يمكننا ان نطلق عليها لقب « الحضارات الامبراطورية » ، ولكن شوائبها تقلل من مدى اهميتها الجوهري

والنسي . ومع هذا تتفصل واحدة منها عن المجموعة وان كانت تشارك سائر زميلاتها بتلك  
السيات . ومع انها كانت الاخيرة من حيث زمن ظهورها فانها فرضت مع ذلك سيادتها السياسية  
على ابعد مدى ، حتى انها اخضعت لسيطرتها مصر وبلاد الرافدين . انها الحضارة الايرانية  
او بالاحرى الفارسية .

## الفصل الأول

### الحضارة الحثية

جرت العادة على تسمية شعوب آسية الصغرى القديمة « الشعوب الآسيانية » . وقدل هذه التسمية على جهلنا حقيقة تلك الامم ، اذ يتعذر علينا دمجها مع الساميين او مع الهندو - الاوروبيين . ولا اهمية ان ابتكرت هذه الشعوب حضارة زاهرة ، كما فعل السومريون الذين لا يزال اصلهم العرقي مجهولا . ولم يحصل هذا إلا بعد ان توطد فيهم أثر سكات بلاد الرافدين والهندو - الاوروبيين . عندئذ فقط ، وابتداء من اوائل الالف الثاني تقريبا ، ظهرت دول منتظمة كالامبراطورية الحثية ومملكة ميتانتي الحورية .

الحضارات الحثية والجورية :  
الخطوط الكبرى

يصعب تعيين حدود هذه الدولة او تلك لأنها كثيراً ما تغيرت ، واتخذت دوماً الامبراطورية الحثية مركزها في الجزء غير الايحي من الاتحاد الاناضولية : وغدت عاصمتها مدينة خطوش ( بوغاز - كي الحالية ) الواقعة داخل المنطقة التي يكونها منعطف نهر كيزيل - إرمك ، الذي عرفه اليونان باسم « هاليس » . ولكن اتسعت هذه الامبراطورية كثيراً نحو الجنوب - الشرقي حتى امتدت الى بابل في بعض اطوارها . ونجد الحوريين ، في أزمنة مختلفة ، في كل من نواحي بلاد الرافدين الشمالية الممتدة من جبال زغروس حتى شواطئ البحر الابيض المتوسط السورية . ويطلق اسم الميتاني خاصة على منطقة منعطف الفرات حيث كان لمصريتي الامبراطورية الجديدة علاقات كبرى مع الحوريين : وفي هذه الحقبة وتلك المنطقة فقط شيد الحوريون دولة عرفت بعض الاهمية والاستمرار . ولكن منذ السلالة التاسعة عشرة خضعوا لسلطة الحثيين وانقضوا تماماً تقريباً . لذا يصعب علينا من ثم التفريق بين حضارتهم وحضارة الحثيين التي قد تتوفر لنا فعلاً عناصر معرفتها بعض الشيء .

واساس حضارة الشعبين هو آسياني . وبدأت الاحتكاكات مع بلاد الرافدين تدخل الى هذا الشعب او ذاك بعض العناصر الثقافية ، خاصة استعمال العلامات المسارية للكتابة ، ويرتقي هذا الواقع الى اواخر الالف الثالث . وقد اتخذ هذا التغلغل مدى واسعاً كما يشهد بذلك وجود

جماعات من التجار الاشوريين في بلاد كبادونية . ولكن في هذه الفترة أتت بعض العناصر الهندو - الاوروبية - من تراقية دون شك - الى بلاد الاناضول ، فتلاقت مع حثي المناطق الشرقية وحواري المناطق الشمالية الشرقية . وتزايدت هذه الجماعات مع الزمن حتى انتهى بها الامر الى تكوين فئة ارسوقراطية حاكمة ، خاصة وقد جلبت معها الحصان الذي حقق لها استعماله تفوقاً حربيّاً لا يحادل فيه . واستساغت هذه القوى لنفسها اذ ذاك شن غزوات جريئة ، لا بل تشييد امبراطورية حثية . وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت هذه الامبراطورية على دولتي البابليين والاشوريين المنفصلتين واقامت توازناً للقوى مع مصر . وفي هذه الفترة اوجدت العلاقات الدبلوماسية والحربية احتكاكات جديدة مع حضارة بلاد ما بين النهرين وعرفت الحضارة المصرية التي كانت قبلاً بعيدة جداً .

وبعد ذلك حصل الجزر ثم التضعف واخيراً الانقراض السريع او التدريجي . ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر . ولم تفسر بعد كل هذه النصوص ، وان كان قد اميط اللثام منذ ثلاثين سنة عن سر بعضها التي كتبت بالخط المسماري فلا يزال العلماء يتعثرون لحل رموز تلك التي كتبت بالخط الهيروغليفي . ولكن من الممكن مع هذا ان تأتي على ذكر حضارة اظهرت اللوحة الحافظة التي سبقت معالمها المتشعبة الاصول .

تستند الدولة الى أسس اقل متانة وتنظيماً مما هي عليه في مصر وبلاد الرافدين . الدولة ان هناك بالتأكيد عرى وثيقة تربط السلطة الملكية بالآلهة . انهم يستجدون نبوءات عرّافي الآلهة في الشؤون العامة ، ويمثلون الآلهة وهي تقبل الملك والمملكة . ويصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر : فهو يتخذ لنفسه حوالي منتصف القرن الرابع عشر ، لقب « شمسي » ، ويصبح بعد موته موضوع عبادة ، ويتقبل التقادم الغذائية المخصصة للآلهة . ولكن لم تتبلور قط عملياً هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة .

ونجد الى جانب الملك جهازاً يرجع أساسه الى اصل هندو - اوروبي : اعني المجلس الذي يؤلفه افراد من الطبقة الحاكمة . ويقرر هذا المجلس قيام ملك جديد ، ويخلف بين يديه عيين الوفاء ولكنه يتقبل من العاهل عهداً مائلاً . ويسعى الملك لتدبير خلافته على العرش وهو بعد على قيد الحياة . وتوصلاً لهذه الغاية يقدم ابنه للمجلس ويستحصل مسبقاً من هذه الهيئة على عيين الطاعة . ومع هذه الاحتياطات فقد اثار هذا النظام اضطرابات سلبية : وقد حصل منها ما اضعف الدولة الحثية . وتعتبر عن تفوق هذا المجلس المدني امتيازاته القضائية : إذ هو يفصل بالدعاوى التي تساق على اعضائه وعلى اقرباء الملك .

وتستثنى اجزاء شاسعة من الدولة من ادارة الملك المباشرة . ويستثمر الملك مباشرة بعض الاراضي ، وهو يتسلم عائدات ويفرض اعمال السخرة . ولكن عليه ان يحسب حساباً لجماعة الهياكل التي تتمتع بالحصانة ، وللكهنة الاعظم ، في الاوساط الدينية الكبرى ، الذي يتمتع

ايضا بسلطات مدنية وهناك ايضا الامراء الاقطاعيون الاتباع ، يعقد معهم الملك معاهدات تضمن لذريتهم السيطرة لقاء طاعتهم . ويوجد اخيرا النبلاء الذين ، في اوقات الحرب ، يجمعون فرق الجنود من سكان اراضيهم ويؤمنون قيادتها ، ويطالبون من ثم بحجز من الغنائم . وللملك جنوده الخصوصيون ، ومنهم المرتزقة ، ومنهم المواطنون الذين يهبهم إقطاعات من الارض ، اذ تجري التعبئة بصورة بطيئة ويجب الاحتفاظ من ثم ، على تخوم الدولة المعرضة للخطر ، بحاميات مستديمة في الحصون حيث يوجد حكام يمثلون الملك .

النصوص القانونية وتعاليمها  
لدينا مجموعتان من القوانين الحثية وضعت على غرار بلاد ما بين النهرين واوجدت الحلول لمشاكل مماثلة . نملك ايضا عقودا تشريعية حورية . ولم يأت النظام التشريعي بشيء جديد ، وقد تأثر بمحصرات أودية دجلة والفرات .

ويُظهر لنا كل هذا مجتمعا لا يختلف اختلافا اساسيا عن مجتمع بلاد الرافدين من حيث نظام الاسرة والمهر والطلاق والتبني . ومع هذا لا بد من الاشارة الى اختلافات هامة . ومما يجب ملاحظته في اول الامر هو ان وجود طبقة حاكمة وحرية ، شبه اقطاعية ، يفرض تعاونا اجتماعيا يعادل على ما يبدو تفاوتاً عرقيا . ويدعى افراد الحرس الملكي عند الحوريين «مارياني» وتشق هذه الكلمة من كلمة ماري الهندو-اوروبية التي تعني «البطل» ويتحكم هؤلاء المحاربون بعملة مملكتهم ، ومعظم هؤلاء من «المسيبين» ذوي نظام اجتماعي أقل شأنا . ونلاحظ ثانيا بان القانون الجزائي هنا هو اخف وطأة من قانون بلاد ما بين النهرين ، وهو يعتمد اكثر على مسدأ الغرامة او التعويض ، الذي يتخذ له مستوى قاسيا جدا . وهكذا فلا تعاقب قط السرقة عند الحوريين بالموت ، ولكن قد يبلغ التعويض ما يوازي ٢٤ مرة قيمة الشيء المفقود . والعقوبات الجسدية هي اقل عددا واكثر ليونا . ويزداد هذا الفرق ، المأموس منذ القدم ، قوة مع التطور والزمن .

وتستفيد الحياة الاقتصادية من معطيات زميلتها في بلاد الرافدين ويمارس القوم اعمال التبادل والقروض حسب نظم مختلفة ، مع وجود مبادئ الكفالة والرهن الخ . وعلى ما يظهر نشطت جدا التجارة في مختلف مرافقها . واستحال عكس ذلك في مناطق اعدها وضعها الجغرافي لتلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الابيض المتوسط من جهة وبلاد ما بين النهرين وايران من جهة اخرى . وغدا الحديد خاصة مادة تصدير كبير نحو المناطق الشرقية والجنوبية ، وقد استخرجوه من آسية الصغرى وزاد في استعماله كثيرا الهندو-اوروبيون؛ وكما حدث للقوانين البابلية والاشورية فقد حدد التشريع الحثي الاثمان المفروضة لبيع المنتجات الزراعية والحيوانات ، وبدلات المثل للخدمات والادوات وفائدة القروض ، ولكن ارتفعت جدا قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض ، اقله في الواقع .

السن والدين  
غدا الحثيون بناء عظماء . ويظهر موقع عاصمتهم آثار أسوارها ، وآثار  
مبان أخرى مهمة، ولكن يصعب تحديدها . ووجدوا، أيضاً في المدن المقدسة  
آثار الهياكل . واعتمد القوم كثيراً على النقش . وقد وجدوا ، علاوة على نقوش الأرواح الحارسة  
التي تحمي الأبواب كما جرت العادة عند الآشوريين ، نقوشاً على الصخور . وهي تبدو عظيمة  
ولكنها غير كاملة ، تمثل آلهة منفردة أو مواكب دينية . ويظهر لنا أشهرها مجموعة من أربعين  
ذكراً تتقدم نحو صف من عشرين أنثى أو أكثر : وقد نظم الأشخاص في كلا الصفين حسب  
الدرجات ؛ ففي الامام نجد الآلهة الكبرى ، تليها الآلهة الثانوية ، ثم يتبع رجال الكهنوت .  
ولهذه النقوش الكبرى فائدة إذ تقدم لنا معلومات عن الديانة ، بالإضافة الى الدلائل التي تحويها  
النصوص في هذا المجال .

يحتوي الزون (البانتيون) الحثي على آلهة كثيرة العدد جداً . وبعد ان يعددوا أسماء بعض الآلهة  
في المعاهدات السياسية يستغيثون « يا آلهة الحثيين الالف » : ويذكرون هذا العدد الاجمالي دون  
شك للتأكد بانهم لم ينسوا اي إله . ومع هذا يولد هذا العدد الكبير الحيرة . وفعلوا اقتبس الحثيون  
آلهتهم من مختلف الجهات . ولكن لا يعود أكبر عدد من هذه الآلهة وأهمها الى اصل أسوي ،  
ونحن غالباً ما نجعل اسم الاله الحثي ، ان لم نقل الحوري ، هذا مع العلم بان الهنـدو – الأوروبيين  
قد جلبوا معهم بعض آلهتهم كـ «متر» مثلاً ، وبان الحثيين اقتبسوا أيضاً بعض آلهة زون  
(بانتيون) بلاد الرافدين كإشتار .

ونجد على رأس هذه اللائحة زوجين من الآلهة حيث تتولى المرأة الصدارة دون شك . انها .  
الإلهة – الشمس ، وبصورة اوضح « شمس أرينتا » وقد اتخذت اسم المدينة ، حيث شيد أشهر  
معابدها ، ولها حيوانان هما البوّة واليامة ، ورفيقها هو اله العاصفة الذي يصبح بالوقت نفسه ،  
هنا او هناك اقله ، اله الحرب . ويمثلونه برفقة ثورين وترمز اليه الصاعقة أو الفأس أو الحربة أو  
مجموعة من الاسلحة . ولكن مع الزمن والتطور تأتي على اوليته إلهة أخرى ، هي بالاساس ابنة  
الزوجين المذكورين اعلاه . اننا هذه المرة امام الاله الفتى الشمس الذي يظهرونه لنا دون لحية ،  
ولا يترددون من جعله عشيق والدته ، عندما يعتبرون هذه الاخيرة إلهة الخصب .

وتتأثر العبادة والكتب الطقسية تأثيراً كبيراً بزميلاتها في بلاد ما بين النهرين . فهم يقدمون  
الذبائح – وقد يقوم غالباً بهذا العمل الملك نفسه – وينظمون المواكب ، كالمواكب الذي يظهره  
النقش الذي اشير اليه اعلاه والذي يمثل إله العاصفة وهو يتقدم نحو الآلهة – الشمس . وما  
الامراض والمصائب إلا قصاص ترسله الآلهة : لذا وجب على المرء ، لتهدئة الآلهة ، ان يتطهر  
جسدياً ويقدم الذبائح وينطق بالصلوات والعبارات الطقسية . وللسحر مركز مرموق كما انهم  
يقبلون على مراقبة النجوم ، وزجر الطير ، والتدقيق بكبد الذبائح ليسندلوا من هذه الطقوس  
على المستقبل .

لا تستوجب الديانة الحثية الانعلاء لكونها تمت الى اصول عده فحسب، بل ايضاً  
استمرار هذه الديانة والتغالها لانها تلقي الاوار على مصادر بعض العبادات والطقوس التي نعتز عليها في  
امكنة اخرى وازمنة لاحقة .

وسنجد إله العاصفة ، المدعو تيشوب عند الحوريين ، والذي نجعل اسمه الحسي ، في سورية  
باسم تحدد وفي فينيقية باسم بعل . وسيصبح الاله حدد - بعل في مدينة دوليخه *Dolichè*  
( بلاد كوماجين *Commagène* ) الذي يحتفظ بالثور والفأس الإله زوس - دوليخانوس  
*Zeus Dolichénos* ليوناني العهد الهليني ، ثم الاله جوبيتر دوليخانوس *Dolichénus* للرومان ؛  
وهذا الاسم ستمتد عبادته الى كل المقاطعات .

وحسب كل الظواهر فان الإلهة الكبرى التي فقدت بصورة تدريجية صفتها الشمسية ليست  
إلا « الوالدة الكبرى » ، الإلهة الرئيسية لكل آسية الصغرى تقريباً ، « مروضة الحيوانات  
المفترسة » ، خاصة الاسد . وقد اطلقوا عليها اسماء عدة وعرفت تغييرات كثيرة . فدعتها نصوص  
فينيقية قديمة باسم كوبابا . وستصبح كينييه عند الليديين ، وسيلة *Ybèle* عند اليونان .  
وستجلبها رومة ، منذ أواخر القرن الثالث ق.م . من مدينة بسينونت في فريجية ، المركز  
الرئيسي لاذلك لعبادتها . وستعرف اتساعاً كبيراً في الامبراطورية الرومانية . ولكن عبادتها  
الآسيوية ، كانت هذه الإلهة قد أثرت في ديمتير اليونانية ، وذلك قبل ان يشعر اليونان بزم  
كثير باغرام عبادتها الآسيوية . وسارع الفرس ، منذ ان اتوا الى آسية الصغرى ، ان يساووا  
بينها وبين إلهتهم انيها *Anahita* .

ووجد الاله الابن الفتى في الديانات السامية ؛ وقد عرفه اليونان في فينيقية باسم ادونيس .  
وهذه السفة اجتاز البحر الابيض المتوسط منذ القرن الخامس ق.م . ولكن ستعرفه اوروبة  
ايام الامبراطورية الرومانية باسم أتيس خاصة وقد دمج مع والدته - وهي حبيبته في الوقت  
نفسه سيلة .

واخيراً أي تفسير نعدلي لوجود بعض التقاليد الدينية التي عرفها الحثيون في مدينة رومة  
وذلك منذ أقدم الازمنة ؟ أحصل الامر عفواً ام كان وليد اعمال نهل مستقلة ولكن من معين  
واحد مشترك عرفه مدي اتساعه شوائب غريبة ؟ ففي رومة سمى القوم ايضاً لقراءة المستقبل  
من خلال كبس الذبائح وزجر الطير ؛ واستعمل العرافون العصا المنحنية ، الليتوس *Litrus* التي  
كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك الذي يقوم بالخدمة الدينية . ومن غير المشكوك  
فيه بان رومة عرفت كل هذا من الاتروسكيين *Etrusques* ؛ وبما ان هؤلاء قد اتوا من آسية  
الصغرى نحو ايطاليا ذلن البعض بانهم وجدوا فيهم الحلقة التي كانت تنقص السلسلة المشدودة .

وعلى كل ، حتى ولو لم نأخذ بهذه النظرية ، فاننا نجد بان الحثيين ، وبصورة ثانوية حوريسي  
ميتاني ، قد لعبوا دوراً هاماً في نشر المعتقدات الدينية . ولم يكتف الحثيون بالمحافظة على  
الاساس الآسياني واقتباس بعض العناصر من بلاد الرافدين بل سهلوا انتقال كل هذه المعالم الى  
امكنة اخرى على سواحل البحر المتوسط الشرقية .

## الفصل الثاني

### الحضارة الليدية

دخلت الامبراطورية الحثية طور التضعف حوالي أواخر القرن الثالث عشر ، خاصة تحت عامل  
تجوي جماعات هندو . اوروبية ، أتت من الغرب عن طريق المضائق . وعلينا ان ننتظر قرونًا  
عدة لنعثر من جديد في آسية الصغرى على دولة لها بعض القوة ويمكننا معرفتها  
بعض الشيء .

ليست هذه حال مملكة او ممالك الفريجيين .

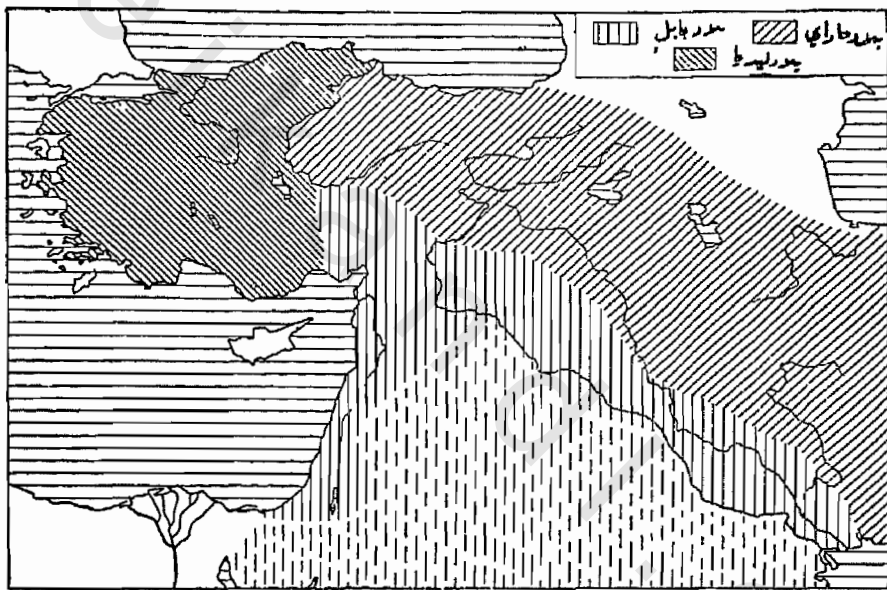
الفريجيون

فمنذ القرن الثاني عشر حتى أواخر القرن السابع تدلنا كتابات الملوك الاشوريين  
على وجود الموشكو Moushkon في شرقي آسية الصغرى ، وقد ناصبهم العداء وتحاربوا مرات  
غدة . ومن الجائز الظن بان خلفاء الحثيين هؤلاء هم من تدعوم الياذة بالفريجيين . وان صدقنا  
الاساطير اليونانية فانهم حالفوا امسالي طروادة . وكانت ملكتهم هي كوب ، امرأة بريام ،  
فريجية . وغدا ماوكمهم خلفاء غوردياس . وقد اشتق منه اسم عاصمتهم غورديون حيث قطع  
الاسكندر العقدة « الغوردية » . وميداس . واتخذ احد هؤلاء زوجة له امرأة يونانية من  
الساحل الايجي وقدم لابلون الدلفي العرش الذي كان يجلس عليه للقضاء . ولا نستطيع تفسير  
هذه الوقائع إلا اذا قاربت بلاد الفريجيين من الغرب اقله البحر الابيض المتوسط ، وان هي  
كانت اقل اتساعاً لجهة الشرق من الامبراطورية الحثية .

وما نستطيع زيادته على هذه الاسطورة او تصحيحه هو امر قليل . فقد اتت زمرة من  
الفريجيين من بلاد تراقية : وهذا ما تؤكده بعض العلاقات الدينية ؛ ولكنهم حصلوا على إرث  
الاسيويين والحثيين العريق . ومن الوجهة السياسية لم يكونوا دولة مركزية ، إذ لم يكتشفوا  
قبوراً كبيرة ، وهي قبور ملكية دون شك ، في غورديون فقط ، بل ايضاً في اقطار شرقية ،  
في انقرة مثلاً : وتفسر هذه البعثرة ضعف دورهم الحربي . وقد كانت لهم علاقات تجارية مع

جيرانهم ، ولكن على مدى قليل . وفي الحقيقة غدت الزراعة وتربية المواشي ، وقد امتدحتهما الاليادة دون ذكر تفاصيل مميزة ، مصدر ثروتهم الرئيسية . واطهر علم الآثار بانهم تأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية : فهناك تأثير الحثيين ، وقد عمدوا مثلهم الى النقش على الصخور ؛ وتأثير قبرص التي باعتهم العُمرى التي تصل اجزاء الثوب والاواني ؛ واخيراً تأثير اليونان الذين اخذوا عنهم الالقباء ومبادئ التزيين في القرن السابع .

وهكذا نجد حضارة مختلفة العناصر ولكنها دون نضارة . ولم تتحدث العصور القديمة عن الفريجيين إلا بشأن هيكل يستينونت من حيث امتدت عبادة سيبله وأتيس مع ما يرافقها من ادوات موسيقى صاخبة كالصنوج او « النحاس الفريجي » .



الشكل ١٥ - امبراطوريات آسية الوسطى نحو منتصف القرن الخامس قبل المسيح

تقدم لنا الحضارة الليدية وجهاً آخر مختلفاً .

المملكة الليدية

انشتت عن الاقطار الفريجية المناطق التي ستصبح في غربي آسية الصغرى المملكة الليدية . ولكن لم يظهر هذا الاسم إلا في زمن متأخر : اذ اسكنت الاليادة في هذه المنطقة الميونيين « Maioniens » الذين كانوا هم ايضاً حلفاء طروادة . وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم مع اغتصاب العرش على يد جيغس Gyges في اوائل القرن السابع ! وفي الفترة نفسها تشير النصوص الاشورية الى اللودو Loudou وملكهم غوغو Gougou . ودام حكم السلالة الجديدة المدعوة سلالة مرمناد Mermnades ، نحو قرن ونصف وذلك حتى الفتح الفارسي . وفي آخر

عهد هاسيطرت على مسافات شاسعة : فقد بسطت نفوذها على آسية الصغرى الغربية بكاملها حتى نهر الهاليس . وخضعت لمهايتها ايضاً السواحل الايجية بما فيها المدن اليونانية . وقد احاطت - ولا تزال - شهرة غنى استثنائي باسم آخر ملوكها كريسوس *Crésus* . وغدت عاصمته *Sardes* مركز حضارة زاهية .

منذ وصول الهنود - اوروبيين غدت تسيطر على البلاد طبقة من النبلاء لما تملكه من اراضٍ . وكانت تقدم للملك « رفقاء » . وقد ملأ الوزير جيجس هذا المنصب وغدا خاتمته الشهير الحتم الملكي . ولم يأت « المرمناد » على هذه الفئة الارستوقراطية . وبعد هذه السلالة نجد النبلاء يعيشون في ممتلكاتهم في بيوت ريفية دعاها اليونان « الابراج » وهي تشبه الحصون . وكانوا بعض المرار اغنياء جداً مما ادهش الملك الفارسي *أخشوئروش* او ( *Xerxès Asrcisus* ) . وحققت السلطة الملكية ، على زمن خلفاء جيجس ، تقدماً محسوساً ، حتى ان التقاليد تظهر لنا الملوك مطلقي الصلاحية ، لا بل تعتبرهم طغاة حقيقيين . ولم يراعوا خاطر احد إذ كانوا خلفاء مفتصب يواجهون الدسائس والفتن ويلاقون المنافسة عند شغور العرش : وكان والد كريسوس يمزق ثياب النبلاء ويبصق في وجهم إذ لا ولا واحتقاراً . وامات كريسوس اخاه بين اسنان آلة تمشيط الصوف لانه سعى الى العرش .

الحياة الاقتصادية لم تكن ثروة الملك اسطورة ، وقد اثبتتها هبات منقطعة النظير في بلاد اليونان . وتولد هذا الغنى الفادح عن استثمار املاك الدولة والضرائب التي ادتها الجماعات المحلية . وعلاوة على ذلك كثر المعدن الثمين وقد جمعه على شكل وريقات من رمال الباكثول ، نهر *سرديس* ، كما استخرجوه من مناجم بعض الجبال . وكان يوجد ايضاً ضرائب على التجارة . وقد يطرحون هذا السؤال : هل ازدهرت التجارة مع الشرق البعيد ؟ ان حفريات *سرديس* اظهرت لنا اشياء قليلة جداً اتت من تلك النواحي ، ولعلمهم يغالون كثيراً في وصف تجارة القوافل التي كانت تتجول على الطريق الكبيرة التي تخترق آسية الصغرى ، والتي ستدعى فيما بعد « الطريق الملكي » أيام الفرس . ومع هذا يؤكد *هيرودوتس* بان الليديين غدوا الكابلي *Kapèloi* الاولين ، اعني الذين يبيعون بالتفريق ويديرون الحانات ( اي الفنادق ) . وعلى كل لا يشك احد في كثرة التبادل التجاري مع مدن الساحل اليونانية التي تقود اليها الاودية النهرية والتي غدت صلة الوصل البحرية مع الغرب .

وقد دعا دون شك هذا التبادل لاختراع النقود المعدنية التي وضعت حداً لمراقبة نوع ووزن السبائك التي عم استعمالها سكان بلاد الرافدين . وتتردد التقاليد كثيراً في تعيين زمان ومكان اختراعها . وقد يكون حق ذلك بعض الافراد في مدن الساحل اليونانية . ولكن ان عدت المملكة الليدية مقتبسة ذاك الاستعمال فهي قد اقتبسته باكراً . وسك القوم في اول الامر قطعاً من معدن استحصلوا عليه بمزجهم الذهب والفضة بنسبة غدت عرضة للتبديل ، فأصبحت من ثم

النقود ذات قيمة غير معينة . وظهرت اول عملية سك نقود فضية في بلاد اليونان ، بينما غدا كريسوس اول من سك نقوداً ذهبية في عالم البحر الابيض المتوسط .

ان العلاقات مع العالم اليوناني تفسر لنا تشابك هاتين الحضارتين .  
الحضارة الليدية  
والحضارة اليونانية  
احتفظت الحضارة الليدية بمظاهر جد شرقية . وشابهت القبور الكبيرة التومولي Tumuli الفريجية . وغدت سبلة وأتيس الإلهتين الرئيسيتين . وكان للموسيقى مركز مرموق في الحفلات حتى قد تهجم الجيوش على ميله Milet « على انغام المزمار والقيثارة » . واتسمت الدعارة بطابع مقدس ، وكانت امراً طبيعياً للفتيات اللديات . وعلى كل فقد ساهمت الجاريات ، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة ، باكبر مبلغ لتشييد قبر والد كريسوس . لذا لم يستنكف اليونان عن ذكر تفاصيل حياة الليديين الانيقة والمخنة : فهم يصفونهم مرتدين غلائل طويلة من قماش زاه ، وواضعين في آذانهم الخرصان ، يهدرون الدهن المعطر على رؤوسهم ، ويتزوع المسك والطيب والعطر من اجسادهم . وهم يفضلون الاكل اللذيذ والحلويات والمرببات ، ويخترعون - لتناسي الجوع والقحط - ألعاب الكعب والزهر والكرة ، وألعاباً كثيرة اخرى . ولا ترمز هذه الالعب الصيانية التي ترفع من المعنويات إلا الى الافتتان الذي شعر به اليونان عندما احتكوا بطبقة اجتماعية استغلت معرفتها فنون الرفاهية التي اوجدتها حضارات الشرق القديمة .

ولم يتوان اليونان عن الحضور . فقد عرضوا خدماتهم كمرتزة وتعاطوا التجارة . وألفوا مستعمرة في سرديس : ففي هذه المدينة ولد الشاعر ألكان Aleman . لا بل توصلوا الى القصر ايضاً إذ ان والدته منافس كريسوس السيء الحظ ، وهو اخ له من أبيه ، كانت يونانية . وتفتحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية ، واتخذ الملوك الليديون لنفسهم لقب « محبو اليونان » ، ولم يسلكوا هذا المسلك للدعابة : فهم استشاروا العرافين اليونان ، وظهروا احتراماً فائقاً للاله ابولون في مدينة دلفي ، واكثروا العطايا للهاكل والمدن اليونانية ، وتعاهدوا مع المهندسين تاليس . وتذكر التقاليد بانهم عهدوا الى صاغة يونان في بعض اعمالهم ، وقدموا المعونة الى شاعر الامثال ايزوب Ésope ، وتحدثوا الى هذا او ذاك من الحكماء السبعة الذين اتوا الى بلاطهم . ولم ينحصر اثر الحضارة اليونانية في القصر الليدي فقط اذ وجدوا اغراضاً خزفية كثيرة من صنع يوناني في قبور سرديس التي ترقى الى اواخر القرن السابع او الى النصف الاول من القرن السادس . وبعد مضي قرن على الفتح الفارسي كتب المؤرخ الليدي كسنتوس Xanthos تاريخ بلاده باللغة اليونانية . وهكذا منذ اواخر العصر المتوغل في القدم بدأ ذاك التطور ، وقد اشتد مع فتح الاسكندر ، الذي سيجعل من آسية الصغرى الغربية ارضاً حصبة للحضارة اليونانية ، وذلك طوال العصور القديمة الاخيرة وفترة طويلة من القرون الوسطى

وبالمقابلة فقد غرف اليونان من معين الحضارة الليدية ، واستغواهم الذهب . ولتفسير وجود

الذهب بشكل كثير ومفاجيء من الممكن الظن بانهم لاقوا مناجم جديدة . وعلى كل فقد ذكروا ، وكانوا بذلك على حق ، « هجوم » اليونان ، وهم تناسوا بسهولة انفتهم امام مثل هذا الغنى . وقد اورد هيرودوتس قصة احد نبلاء اثينة الذي سمح له كريسوس ، مكافأة له لانه اخسحكه بشكله الزري ، ان يأخذ من الذهب ما يستطيع حمله ، فملأ النبل إذ ذاك حذاءه ولبيات فميصه وفمه ايضاً ، هذا علاوة عن الهدايا الاخرى التي تلقاها . واخذ اليونان من ليديا العدد الكثير من الكنوز ، إذ غدت هذه البلاد ، وهي قريبة من مدنهم الآسيوية ، إحدى الطرق ، لا بل الطريق الرئيسية ، التي سمحت لهم بالاحتكاك مع الشرق الذي اقتبسوا عنه الطرق التقنية الصناعية والفنية ، والعقائد والعبادات الدينية ، والامثال الميثولوجية والمعلومات العلمية . وهكذا غدت اقنيسات اليونان من الشرق كثيرة العدد وثقيلة الوزن ، إذ تعجز المصادفة ان تفسر التقدم الذي احرزته ايونية على سائر المقاطعات اليونانية ، وقد شاركت لا بل خضعت عملياً لسرديس : ولم تلاق اي من هذه المقاطعات سهولة مثل ما لاقتسه ايونية للاستفادة من اختبارات الغير .

## الفصل الثالث

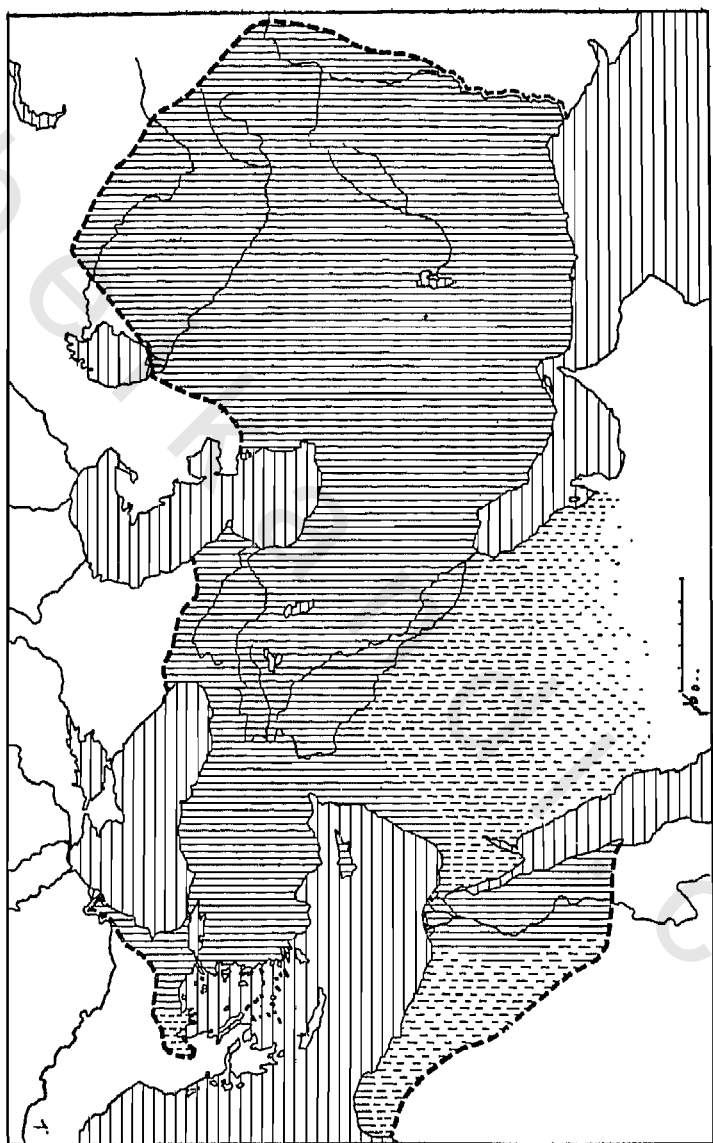
### حضارة بلاد الفرس الأخمينية

استولى الملك كورش الفارسي على سرديس سنة ٥٤٦ او سنة ٥٤٥ . وبعد قليل بدأ يونان الساحل بهجماتهم ، وهكذا فوجيء العالم بظهور قوى جديدة سوف يقضي توسعها بشكل صاعق على جميع العقبات ، وذلك اثناء نصف قرن او اكثر .

كانت هذه القوى لشعب لم يعره احد قبلاً كبير اهتمام . وينتمي هذا روح السيطرة الفارسية الشعب الى الارومة الهندو - اوروبية ، وكان قد استقر في الالف الثاني ق.م في جهات هضبة ايران الغربية . وجاوره جنوباً السوزيون ، الذين كانوا قد اقتبسوا حياة سكان بلاد الرافدين منذ زمن قديم . ولكن فصلت سلسلة جبال زغروس بين هذا الشعب وبلاد ما بين النهرين . ومع هذا تأتي على ذكره بعض المزارع نصوص آشورية . وعندما يقرؤها المرء يعتقد بأنه ازاء قوم من البدو السرقة والمقلقين . ورويداً رويداً استقر بعض منهم ونظموا حياتهم حسب تطور لا تزال مجهله .

وحالف هؤلاء البابليين واسهموا ، بقيادة الماديين ، بالاستيلاء على نينوى وتدميرها ، وقد نالوا مناطق بلاد الرافدين العليا عندما قسمت الامبراطورية الاشورية . ولم يكفهم هذا . وكان عليهم ان ينتظروا اكثر من ستين عاماً ليظهروا قوتهم الحقيقية دون حاجة الى حلفاء . وفي هذه الاثناء انتقلت القيادة الى الفرس الذين حققوا غرباً فتوحات ساحقة : فاستولى كورش ، اول ملك من السلالة الاخمينية ، على ليديا ثم بابل ؛ واخضع ابنه قبيز مصر والقيروان ؛ وغدا الملك الثالث داريوس الاول سيد بعض جزر بحر ايجه وتراقية في اوروبية . واثار غزوات اخرى اشد صعوبة دون شك - ولا تزال معرفتنا بها سطحية جداً - دانت لهم هضبة ايران حتى تركستان ونهر الهندوس .

وفي زمن لاحق غدت حدود الدولة هنا وهناك عرضة للتغيير : وهكذا تخلى الملوك نهائياً عن اوروبية اثر انكساراتهم في بلاد اليونان زمن الحروب المادية . وحصلت في الداخل ثورات



الشكل ١٦ - امتداد الامبراطورية الفارسية في بدء القرن الخامس قبل المسيح

متتالية لم يستطيعوا قمعها إلا بصعوبة ، كما حصل في مصر مثلاً . ولكن لا تؤخذ هذه الظروف بعين الاعتبار إذ لم يسبق للعالم القديم ان عرف دولة بمثل هذا الاتساع . ولكونها ورثت الامبراطوريات العظمى التي سبقتها فقد هيمنت هذه الدولة على كل الاقطار التي خضعت لتلك الامبراطوريات ، وزادت عليها بلاداً اخرى : ولم يصل اقوى الملوك الانوريين الى المضائق او الى نهر الهندوس .

وهناك اكثر من ملاحظة جغرافية . فمن ناحية اولى استفاد الماديون والفرس ، وقد برروا في زمن لاحق على مسرح منازعات الترق السياسية والحربية ، من تصعصع شركائهم القدامى وتفككهم . ولم يستطع الذين هددوا الماديون والفرس ان يوحدا صفوفهم لما استحكم بينهم من منافسات قديمة ، لا بل كان تحالفهم ، ان تحقق ، اعجز من ان يتبلور في عمل مشترك . ومن ناحية أخرى وجد عواهل الفرس في تراث الممالك العظمى المعنوي التي غلبوها على امرها مبادئ عدة تدعوهم الى السيطرة العالمية . وكان التراث البابلي اغنى من كل رملائه في هذا المجال . لذا ظهر هؤلاء الملوك وكأنهم يحققون منهج الدول الشرقية الاستعماري .

وفي الحقيقة لم يكن اندفاعهم المفاجيء إلا تعبيراً عن دفقة حياة جديدة في نظام مرت عليه ألوف السنين . بضعة تلت زميلات كثيرات لها امتدت ابعد منهن مدى ، ولكنها ستعرف مثلهن المصير المنهك . وهناك اكثر من ذلك . فان كان الانكسار الذي تلاها قد تأخر ، ولم يحصل إلا بعد قرن ونصف من الحرب المادية الثانية - لكنه عدا اوسع مدى من اي انكسار سابق واتخذ له طابعاً حديداً ، اذ مع الاسكندر عمر العرب لأول مرة اقطار الامبراطوريات القديمة ، ولم يصبح توحيد الترق إلا عاملاً يسهل مهمة الذي سينتصر عليه . وقد باب المكشوني مناب العاهل الاحميني ، بعد ان انتصر عليه ، وعدا هو ايضاً وريت المادىء الملكية التي نشأت في مصف وطيوه وابل وأسور .

« أنا أحستويرونس ، الملك العظيم ، ملك الملوك ، ملك السلاذ المتعدد : الروح الايرانية  
أصناف رجالها ، ملك تلك الاقطار الشاسعة ، ان داروس الملك ، ابي احميني وفارسي وابن فارسي وآري من عرق آري » هذا ما تظهره لنا كتابة محفورة على حسم موحد السطح تقريباً . وتحوي مجموعة هذه الالقاء اموراً عدة . ودون ان يعيد الكرد على مزاعم الملك الذي يريد السيطرة على العالم كله سنكتفي بالتعلق على العناصر الاخرى .  
بشدت الملك على وصف اصله العائلي والعرقى . فهو يعلن نفسه بكل اعتزاز بأنه ابراني نبيل ؛ ويبقى في الواقع على هذا النرف .

وكان الآريون - وهم الهندو - اوروبيون الذين استوطنوا ايران - اقرباء الغرب والسياريين الذين سكنوا السهول المنبسطة ما بين الدابوب الاسفل وتركستان . ولم تستطع ايران ، وهي بلاد سباس وصحارى ، ان تفقرهم . وعدت المناطق ، التي تقع على سفح الجبال المحيطة بالبلاد

من الشمال ومن الغرب ،البقاع الوحيدة الصالحة لحياة استقرار لمناخها الرطب وسهولة الري . ومع انه أسست هناك المدن فقد استمر مبدأ حياة البداوة يسيطر نوعاً ما . وبقي التنظيم الاجتماعي الطبيعي على ما كان عليه في القبيلة : ست قبائل من الماديين ، كما يقول هيرودوتس ، وعشرة قبائل من الفرس منهم أربع قبائل رحل . وقسمت هذه القبائل الى بطون وأسر : ومن هنا تكاثر عدد الرؤساء الذين يتوارثون السلطة والنبلاء الذين يختلفون فئات وطبقات . ولم يختلف الماديون والفرس في هذا كله عن سائر الايرانيين الا في تكوين نظام ملكي مطلق مبدئياً ولكنه يحسب واقعياً الف حساب للأسر الكبيرة .

واعتقدت بعضها بانها لا تقل شرفاً عن الاسرة الاخمينية نفسها. لقد اكتسب كورش سلطة معنوية لا حد لها لما احرز من انتصارات ، ولكن اقترض نسله بموت ابنه . وانتسب داريوس الاول الى اسرة ثانوية ولم يكن رئيساً لها . وانتخب من بين عظماء كثيرين كانوا قد تضافروا ضد احد المغتصبين . وكان احدهم قد تنازل عن ترشيح نفسه ، شرط ان يعفى ، هو وذريته من بعده ، من الاعتراف باي سيد . واسدى الملك الجديد خدمات جلى اذ قمع الثورات التي نشبت في سوزة وبابل وبلاد ماداي-فاحرز تسعة عشر نصراً ، وادب تسعة عصاة- ونظم الامبراطورية . وقد أضفت عليه هذه الاعمال هالة من المجد استند اليها خلفاؤه . ولكن حصلت اضطرابات عدة كان مصدرها القصر ، وهو مهد الدسائس والمكائد ، او أحدثها نبلاء كان اخلاصهم سريع التضعف . واستند النظام الملكي الفارسي على اخلاص الفرد للفرد ، وذلك على مدى واسع ، اي على النفوذ المعنوي الذي يتمتع به الرئيس عند صحابته .

وتبرز الروح الايرانية بمظاهر اخرى تميز الحضارة الفارسية عن الحضارات الشرقية القديمة . ولا يتم هذا في مجال الدين فقط حيث للاله الاعظم أورموزد طابع مميزة لا جدال فيها ، بل ايضاً - ويصعب تحليل هذه النظرية - في توزيع الامة الى فئات تعتمد كل منها على صناعة ، وذلك حسب مبدأ نظري شبيه بالذي تنفذه اليوم الامة الهندية . واخيراً تبرز تلك الصفة باستعمال نقوش ورموز تعبر عن اساطير غامضة ، يمتد اتساعها الجغرافي دون تعيين حدود ، الى سباسب جنوبي اوروبا واواسط آسية متجاوزاً بذلك حدود ايران . وبين الارواح التي لا يرقى الشك الى دورها الوقائي يحتل الحصان منزلة مرموقة ، إن كان وحده او ضم بصورة غريبة الى حيوانات اخرى كالديك مثلاً . وعندما يجرنا هيرودوتس بأن داريوس انتخب للعرش لأن حصانه قد صهل للشمس الشارقة قبل أحصنة الطامعين الآخرين بالتاج ، فان معرفة ارادة الآلهة بهذا الشكل تتلاقى مع دلائل اخرى لتظهر لنا الاهمية العملية والروحية التي كانت للحصان عند شعب بدوي الاصل استمر على تعاطي تربية المواشي .

لا نستطيع والحالة هذه ان نفصم العرى التي تصل المملكة  
إرث « الشرق الكلاسيكي »  
الفارسية بأصولها الايرانية : وان رجعنا الى الزمن القديم نرى

بأن هذه المملكة هي غريبة عن « الشرق الكلاسيكي » . ولم تفت الاسكندر هذه الحقيقة إذ تظهر السياسة التي اتبعها بأنه شعر ، وهو في إيران ، بأنه اقرب الى مقدونية مما لو كان في مصر او بلاد بابل .

لكن تأثرت الحضارة الفارسية بمجار كثيرة اخرى ، جعلت منها حضارة شرقية . وتعتبر هذه الحضارة ، اكثر من كل زميلاتها السابقة ، نقطة التقاء . ونسبة لما اقام الماديون والفرس من علاقات مع سوسه وبلاد الاشوريين فانهم تخطوا الحياة البدوية الصرفة . ثم جعلت الفتوحات من الاخمينيين ورثة اعظم الامبراطوريات القديمة وسادة اقطار تأصلت فيها اشد الحضارات قدماً . ومع ان هذه الحضارات كانت قد أشرفت على المنيب فانها تركت تقاليد وآثاراً باهرة : فكيف التهرب اذن من اشعاعها ؟ وبرز تأثير الشرق قوياً جداً ، خاصة نفوذ بلاد الرافدين ، وهي اقرب الى وسط الامبراطورية واشد تنظيمياً من مصر البعيدة .

ونشأت عن هذه الحالة ، في المجال السياسي ، صعوبات مباشرة اظهرت حدتها اللازمة التي برزت عند اعتلاء داريوس الاول العرش . وغدا من الضروري ايجاد نظام ، وان كان ادارياً اقله ، لامبراطورية لا تعرف اي وحدة اذ هي فسيفساء بلاد متعددة الشعوب ، تختلف في الدين واللغة والنظام الاجتماعي والحياة الاقتصادية ، ولم يكن الهدف توحيد هذه الحضارات او صهر تلك الامم . ولم يكن هناك سابقة تدعو الى ذلك ، ولم تلاق مثل هذه الفكرة ، ان وجدت ، اي بدء تنفيذ . انهم اكتفوا فقط بنقل بعض السكان من قطر الى آخر وذلك على سبيل القصاص ، فأسكن بعض اليونان في بلاد سوسه ، وكان الاشوريون والبابليون قد لجأوا مراراً كثيرة الى مثل هذا التدبير . وهكذا أسكنت بعض الجماعات الايرانية في وادي النيل وآسية الصغرى الغربية . وقد مثلت هذه الجماعات فرقاً حربية اسندت اليها مهمة الدفاع عن حدود يهددها الخطر او مناطق معرضة للثورات . واكتفى الملوك الاخمينيون ، دون ان يكون لهم هدف واسع المدى والتنظيم ، ان يروا بأن امرهم تنفذ ، والحرية تدفع لهم بانتظام ، وتعبئة جيوشهم تتحقق .

وتوصلاً الى هذه الغاية لجأوا الى الطرق التي اتبعها اسلافهم ، خصوصاً ملوك بلاد الرافدين . انهم حسنوها دون شك ونفذوها غالباً كما تقتضيه العدالة والروح الانسانية ، ولكنهم لم يستنبطوا شيئاً جديداً في هذا المصارع . ومع هذا فان التطور الذي قد حصل كان خارجاً عن ارادتهم ولم يحددوا المنتفعين منه .

الملك هو مطلق الصلاحية . ولا يحق لأي فرد او لأي مجلس جماعي ان  
النظام الملكي  
نقاسه سلطاته او يراقب كيف يستغلها . انه يتسامها من اورموزد الذي ينتخبه . وتبتدىء كل النقوش الملكية ، تحت ستار الدعاء الى الإله ، بإعادة ذكر هذا التعمين : اورموزد هو الاله الاكبر ، الذي خلق السماء في العلي ، واوجد الارض ، الذي ابدع الانسان

واستنبط له الغبطة ، الذي جعل من داريوس ملكاً ، ووهب لداريوس هذه المملكة العظيمة الغنية بالخيول والسكان . وقد وجد هذا النص منقوشاً على أربعة وعشرين نصباً في مصر . وعلى وجه النصب الآخر وجدوا النص الهيروغليفي المقابل وهو يعزو انتصارات الملك الى عطف إلهة سايس ، والدته . اما في بابل فكان الاله بعل - مردوك ينتخب الملك . وهم يسندون النص الرسمي الى التقاليد المحلية . ولكن لا يتكلم هذا النص الا عن الاله الايراني .

ولا تعتبر السلطة الملكية المطلقة التي تقررها ارادة الاله تجديداً في الشرق . كما لا يعد امراً غير مألوف الرأي القائل إن على الملك ان يحب الحق ، ويؤمن العدالة ، ويحمي الضعيف وذلك طاعة لرغبات الإله . وتعد هذه النظرية جزءاً من مفهوم النظام الملكي المصري ، وقد اشار اليها بشدة حورابي في قانونه . ولكن يعبر ملوك الفرس عن هذه العقيدة بصورة اشد وضوحاً واكثر استمراراً : « لقد احببت العدل وأبغضت الكذب » كما يؤكد داريوس « وارادتي هي ان لا يلحق ظلم بالارملة واليتيم ؛ لقد جازيت الكذاب وكافأت الفلاح » . وهذا ما يتفق مع المبادئ التي بشرت بها الديانة الفارسية لكل الامم . وان اعتبر بعض الكتاب اليونان الملك الاخميني ، وهو عدو وطنهم ، مثال المستبد الظالم الذي يعد نفسه فوق كل قانون ، فقد اشاد البعض الاخر ، ومراراً الكتاب الاولون ايضاً ، بمثل هذه التعاليم . وعلى كل لم تكن هذه الاشادة مجرد كلمات جوفاء ، فان كتاب السيروبيدي *Cyropédie* لكسينوفون *Xénophon* هو اقدم قصة تاريخية . ولكن اشتهر بحق داريوس الاول بانه مشرع عادل ونشيط .

وهناك مظهر كلاسيكي للنظام الملكي الشرقي المثالي ، وقد اشاد بذكره الملوك الاخمينيون الذين انتسبوا الى أصل ايراني : فالملك هو القدوة لكل محارب ، اذ قد غدا مريضاً على مختلف التمارين الجسدية ؛ وعندما وصل الاسكندر الى قبر داريوس نقلوا له بهذه الكلمات ما كان قد نقش على ضريحه : « كنت صديقاً لاصدقائي ، واصبحت امير الحياالة ورماة القوس ، وفقت الصيادين ، وباستطاعتي القيام بكل شيء » . ويعبر هذا الموجز احسن تعبير عن روح النص الاصلي . وان كان اطول .

وفي اول عهد النظام الملكي ، كان باستطاعة النبلاء العظماء ان يقابلوا الملك بسهولة . ولكن بعد داريوس نظمت مبادئ دقيقة جداً جميع اعمال الملك . فهو يعيش في جناح خصوصي بالقصر دون ان يستطيع احد الاقتراب منه . وتجبرنا قصة استير *Esther* بأن نساءه كن ينتظرن اوامره ليلتحقن به . ولم يشاهده الخاضعون لحكمه الا في ايام الاحتفالات ، يخضع الجميع امامه عندما يطل على عرش العظمة او عربة الابهة يحميه حرس منتخب تحل لنا تصاوير سوسه اسلحتهم وحليهم . وقد سبب له هذا الانزواء نتائج لا مفر منها : دسائس الحريم والاعتيالات ومكايد الوزراء والخفيان . ويوجد هوة سحيقة بين المملكة القوية التي حكمها كورش الكبير او

داريوس الاول وبين الدولة التي انقضت عليها الاسكندر اذ كان قد هلك ملكات من ملوكها بالسم بينا احتاط الثالث لنفسه فسم قاتلها خشية ان يصبح هو الضحية .

الحكم والادارة للملك عدة عواصم، فمنها ما هو في بلاد فارس نفسها: بسرغاد *Pasargades* التي اسسها كورش ولكنها اهلكت بالواقع، وبرسبوليس *Persépolis* التي وضع تصميمها داريوس ، اول ملك من الفرع الثانوي ، لتصبح مقر السلالة الرئيسي والتي لم يكتمل قط بناؤها. وهناك عواصم اخرى كانت قواعد الدول التي اخضعتها المملكة الجديدة : إكبتانا في بلاد ماداي وبابل وسوزه . وقد اهلكت مصر وليديا لبعدهما . وشيد الملك في كل مكان القصور وأقسام الحدائق « الجنائن » لشدة ولعه بالحضرة والقنص - وكلمة الجنائن هي الاسم الفارسي للحدائق الكبيرة حيث ترتفع الاشجار وتكثر حيوانات الصيد المتنوعة . وسريعا ما ينتقل الملك من مكان الى آخر دون ان يجبر نفسه في هذا المجال بمبدأ او نظام . ولكن المقر المستحب هو مدينة سوزه، حتى ان اسم هذه المدينة غدا للمعاصرين كأنه رمز لقوة الامبراطورية وهيشة حكمها .

ويجري طبعا كل شيء باسم الملك . وتتخذ القوانين الملكية العمومية شكل تصريحات شفوية تصدرها دوائر الدولة . ولكن يقوم الى جانب الملك وزير ينتخبه العاهل ويدعوه اليونان « شيليارك *Chiliarque* » ويشق هذا اللقب من كلمة حربية وهو يعني قيادة جزء من الحرس الملكي .

وترتكز المركزية على وسائل مادية قوية . فقد اعدوا بعض الطرق الكبيرة والحقوا بها سلسلة من الخانات والاصطبلات التي تعتبر كمحطات تؤمن تنقل السعاة السريع . ومن اشهر هذه الطرق الطريق التي تصل سرديس بسوزه ، وعلى كل هي الاشهر لان اليونان استعملوها وغدت موضوع اعجابهم . ولكن لا يكفي تبادل الرسائل ؛ لذا ترسل الحكومة المركزية مراقبين يراقبون الادارات المحلية ؛ وقد دعي هؤلاء « عيون وآذان الملك » حسب استعارة تبنتها الممالك التي سبقت في الزمان .

وهناك وسيلة اخرى تسهل المركزية : اللغة والكتابة . ولم تكتب الفارسية لغة الملوك ، قبل داريوس الاول . ولهذا الهدف تبناوا العلامات المسارية . واستعملوا اللغة الفارسية في النقوش الرسمية والاستعراضية ، كما استعملوا في الوقت ذاته لغات الممالك القديمة كلغتي بلاد أكاد وسوسه . وقد سمحت هذه النصوص المكتوبة باللغات الثلاث للعلماء المعاصرين ان يحلوا رموز هذه اللغات المنقرضة وذلك لما عرفوه من اللغة الفارسية بواسطة كتب البارسيين الدينية الذين يقيمون في الهند . ولكن لم تصبح هذه اللغة سهلة التداول لانها فرضت استعمال الحزف . وكانت المملكة الاشورية قد بدأت تستعمل اللغة الارامية : وهكذا اعتبرت المملكة الفارسية اللغة الارامية اللغة الوحيدة للأعمال الادارية . وعمدت دوائر الدولة في سوزه الى نقل النص

الفارسي الى اللغة الارامية وارسلت نسخاً من مقرراتها الى الدوائر الحكومية المحلية التي كانت تترجمها بدورها الى لغة القطر الوطنية . وهذا ما يفسر لنا التقدم المستمر الذي احرزته اللغة الارامية في الشرق الادنى - وهذه نتيجة غير مقصودة لضرورة سياسية - وقد نتج كل هذا عن اسناد المملكة وظائفها - ولم يكن لها تقاليد عريقة او مؤهلات لخلق ادارة مركزية على شكل آخر . الى جماعة من الكتبة اورثتهم اياها الدول المنقرضة او انتخبتهم من رعاياها الاكثر تنوراً او اطلاعاً .

، هكذا اكتفى الاخمينيون بتبني اساليب اسلافهم والسير بها نحو الكمال ، وذلك في اكثر من مجال ، ولكنهم اوجدوا مناهج جديدة في مضمار الادارة القطرية ان لم يكن المحلية ، واحترموا الجماعات البشرية والتقسيمات الجغرافية التقليدية كالقبائل والممتلكات العقارية الفسيحة العائدة الى الهياكل والاشخاص ، والمدن والمخاضات . ولكنهم مع هذا قسموا امبراطوريتهم الى عدد من المقاطعات يتراوح بين العشرين والثلاثين دعوها المرزبانات . وكان على رأس كل منها نيل ايراني يمثل دون شك الملك ، ولكنه يمثل ايضاً في الوقت ذاته الشعب الفاتح او بالاحرى تلك الطبقة الارستوقراطية الحربية التي تصلها بالعاهل عرى وفاء شخصي ، اذ تشترك ويايد بحماية وادارة الاقطار التي انتصر عليها بجهودهم المشترك . وقد برزت الصفة الايرانية في اكثر مظاهر هذا التنظيم اذ عاش المرزبان ، ولو على مستوى اقل ، سيشة الملك ، وكان له قصر وحرس وبلاد واصدقاء شخصيون . ولم تخل هذه الحالة من مخاطر . واتخذ داريوس الاول للأمر احتياطاته اذ اوجد المفتشين والمراقبين ، وانشأ نظام البريد الملكي ، وأقام بجانب « المرزبان » امين سر يرسل مباشرة الوزير ، واسند الى قائد خاص قيادة الجيوش الموجودة في المرزبانة . ولكن ضعف بعض الملوك والتنازع على السلطة في القصر او هنا هذه المعنى التي كانت قديماً متينة وقوية . وجند بعض المرازبة مباشرة المرتزقة وطالبوا - ونالوا مبتغاهم - باسناد وظائفهم الى اولادهم ، وقد احدثت هذه التصرفات ، في القرن الرابع ، اضطرابات ملوية الامد في نواحي الامبراطورية الغربية . وبعد ان كانت هذه القلاقل محلية فقط اتسعت فحدثت اذ ذاك « ثورة المرازبة الكبرى » التي لم يقض عليها ارتحششتا الثالث الا بدموية كلية .

توخت هذه الادارة في الدرجة الاولى اعطاء الملك وسائل اظهار

الادارة

جبروته .

وندا الهدف الاول توفير الاموال ، لذا اجبر جميع رعايا الدولة على دفع الجزية ما عدا الفرس والمادييين ، وهم الشعوب المظفرة . وكان داريوس قد حدد مقدار هذه الجزية لكل من المرزبانات . ولتوزيع هذه الضرائب على الجماعات التي اجبرت على تأديتها ، اعتمدوا الاساليب القديمة المتبعة وذلك على اساس اعمال مساحة نظمت هنا تنظيماً دقيقاً وهناك حسب تقدير

تقريباً . وغدا للفرس من ثم فضل التوفيق وليس الاختراع . ولم يجر خلفاء داريوس ، كما يبدو ، تغييرات أساسية في هذه الاجراءات . وقد نجد تفسيراً للثورات المتكررة في بلاد بابل دون اعتماد الافتراض القائل بزيادة تلك الضرائب . فهي كانت منذ الاساس المرزبانة الاشد احتقاراً والمفروض عليها ابهظ جزية إذ اجبرت سنوياً على تأدية ألف مثقال فضة وخمسة خصي . وكان قسم من الجزية يدفع خيرات طبيعية والقسم الآخر سبائك من المعدن الثمين . واستعمل جزء من هذه الضرائب في كل مرزبانة لإعالة الخنود والموظفين المقيمين فيها . وهكذا قدمت كيليكية ٣٦٠ حصاناً أبيض و ٥٠٠ مثقال فضة يصل منها فقط الى الحكومة المركزية ٣٦٠ مثقالاً . ويلجأ هيرودوتس ، واليه يعود فضل وقوفنا على حسابات عهد داريوس المنصليية ، الى ضرب رقم مثاقيل عيار الذهب التي كانت تدفعها المرزبانة الهندية وهي ، حسب قوله ، اغنى المربانات واكثرها سكاناً ، وذلك للحصول على كمية الفضة المعادلة لذلك العيار الذهبي . وهكذا يؤكد بأن تلك المرزبانة كانت تدفع ما يقابل ١٤٥٦٠ مثقال فضة - اي ما يعادل ٨٧،٣٦٠،٤٠٠ فرنكاً فرنسياً في سنة ١٩١٤ . واعتبر اليونان دوماً بأن لملك الفرس ثروة ضخمة خضع لجاذبيتها اكثر من شخص .

وعلاوة على الابعاء المالية كانت هناك اعباء حربية . وتآلفت القوى التي اخذ الاخميني على نفسه تعملتها ان دعت الضرورة من فرق تقدمها كل مرزبانة ويغدو قائدها عادة المرزبان نفسه . وهكذا استطاع العاهل جمع اسطول وجيش كثيري العدد . ولكن لم تسير هذا الجيش وذاك الاسطول اي روح وطنية وقد كانوا مجموعة عناصر مختلفة من حيث السلاح وخطط القتال واللغة . وقد استغل اليونان ، أعداء الفرس ، هذا الواقع الى ابعد مدى فذكروا لجيوش الفرس رقماً هيوياً وتحدثوا عن عبيد سيقوا الى المعركة تحت تهديد السوط . لقد وجدت دوماً في خضم هذه الجماهير عناصر حسنة ، خاصة الايرانيين ، خيالة كانوا او رماة ، والمشاة البالغ عددهم عشرة آلاف وهم فخر الحرس الملكي ، ويدعونهم « الخالدون » . ولكن اهاب تفوق الجندي اليوناني التقني بالماوك والمرازيبة الفرس لتجنيد المرتزقة اليونان وذلك بصورة تصاعدية ابتداء من اواخر القرن الخامس ؛ وقد اثبتت حوادث عدة هذا التفوق ومن اشهرها مغامرة « العشرة آلاف » من بلاد بابل حتى البحر الاسود . وايام غزوة الاسكندر كان المرتزقة اليونان يؤلفون قسماً هاماً من الجيش الفارسي ، اقله من الفرق التي لم يعوزها كبير وقت للانتقال من مكان الى آخر ، كما كوّن ايضاً اليونان او بحارة شواطئ آسية الصغرى الذين ينتمون الى عنصر يوناني ، بالاشتراك مع البحارة الفينيقيين ، رجال اسطول حسبوا له حساباً .

هل حددت الدولة الفارسية لنفسها اهدافاً اخرى ؟ انها على كل لم تقرر بملء ارادتها ووعيتها منهاجاً اقتصادياً . فقد تركت للأقطار التي اخضعتها حرية الاستمرار على تنفيذ النظم التي ارادتها لنفسها . ولكن حصل مجهود مرموق في حقل التشريع ، وخاصة في بلاد بابل ، ومع ذلك لم تسع الدولة لتوحيد القوانين . وقد سهلت الوحدة السياسية التعامل التجاري اذ قللت

الحواجز والصعوبات واوجدت جو أمن وسلام لتنتقل التجاري؛ ولكن لم يستفد القوم من الامكانيات التي بررت امام الاتصالات البحرية . ومع هذا استطاع احد الاسويين الغربيين الذي كان في خدمة داريوس وهو الكاري سكيلاكس من كاريندا ، ان يجاري نهر الهندوس ثم يجاذي سواحل ايران الجنوبية ليدور بعد ذلك حول الجزيرة العربية وينتهي عند السويس . ولكن بقي هذا « الطواف » وحيد جنسه ولم يستفد تجارياً منه احد ، وكان قد نظم لغايات سياسية ، وبصورة ثانوية علمية . وسيظهر نيارك ، امير البحر عند الاسكندر ، جرأة فائقة عندما يتم جزءاً من الرحلة التي قام بها سكيلاكس . والطريق الوحيدة للشرق الاقصى كانت الطريق البرية : فبعد اجتياز ايران كانت هذه الطريق تتفرع نحو افغانستان والهند من جهة ، ونحو تركستان والصين من جهة اخرى . وقد عرفوا هذه الطريق واستعملوها ولكن نجعل مدى استغلالها .

وكانت تنقص الامبراطورية الفارسية لتحقيق امكانياتها الاقتصادية سياسة مالية منظمة ومطرودة . ولم يتبع الاخمينيون الا قليلاً المثل الذي قدمه لهم الملوك الليديون . فهم منذ عهد داريوس الاول ، ضربوا السكة الذهبية « الدارجة » وذلك بكمية قليلة جداً ، ولكنهم لم يعمدوا الى ضرب النقود الفضية الا في زمن متأخر ، كما سمحوا للمرازية ان يسكوا مثلها باسمهم . وقد قام هؤلاء واولئك بهذا العمل لضرورة معاملاتهم مع اليونان ، وهم المرتقة والتجار ورجال الفن . ولكن يؤكد انتشار قطع النقود اليونانية في الامبراطورية الفارسية التي بعدت بعض اقطارها بعداً شاسعاً عن البحر الابيض المتوسط بأن النقود الفارسية لم تدفع بالمطلوب الصروري . وفضل ملوك الفرس تكليس الثروات محتفظين بالمعدن الثمين الذي دفع لهم كجزية بشكل سائك صبت على هيئة اوان . وهكذا بقيت وقتاً طويلاً هذه الثروات دون فائدة . وعندما استولى الاسكندر على العواصم الفارسية وضع يده على كنوز لم ير لها مثيل في ذاك العصر ! مئة وعشرون الف مثقال في برسبوليس وحدها ... وهذه القيمة تعادل اكثر من مليار فرنك في سنة ١٩١٤ م . وسارع هو وخلفاؤه لسك نقود من هذه الكميات ؛ محدثين والحالة هذه ثورة اقتصادية حقيقية في بعض الاقطار حيث بقي التبادل التجاري يحتفظ بأشكال متأخرة وقديمة العهد .

واستطاع بعض الملوك ان يراقبوا مراقبة دقيقة حكام المقاطعات المحليين ، فاهتمت الدولة اذ ذاك برفاحية رعاياها وحمايتهم من مظالم السلطات . ولا نجد في هذا المجال اوضح من رسالة ارسلها داريوس الاول - ولا نجد دوماً الا هذا الملك ! - الى موطف نجبل رتبته كان يشغل وظيفة ما على الساحل الإيجي . وقد افادتنا عن هذه الرسالة كتابة يونانية غير كاملة ، لسوء الحظ ، ورد فيها : « عرفت بأنك لا تخضع لأوامري مجذافيرها . وبما انك تستثمر املاكك اذ تزرع فيها اشجاراً مثمرة بعد ان تنقلها من سورية نحو شاطئ آسيا فاني امتدح افعالك وستلقى مكافأتك من القصر الملكي . ولكن حيث انك تستهزئ بتعليقاتي التي اصدرها تجاه الآلهة فاني

سأريك ، ان لم تغير سلوكك ، مدى غضبي . فقد فرضت دون حق ضريبة على مزارعي ابلوث المقدسين وامرتهم بأن يفلحوا ارضاً لا تخص الإله ، مستهتراً والحالة هذه بعرفان الجميل الذي ابداه اجدادي نحو الاله ، الذي علّم الفرس حقيقة شريفة و ... » وهكذا توخت الادارة كاهداف لها ، وقد احسنت مراقبتها ، تقدم الزراعة والعدالة والتساهل نحو الالهة الغريبة ، شرط ان تعلم الحقيقة ، وهذه كلها موجبات معنوية اخذتها الديانة الفارسية بعين الاعتبار .

الديانة  
عرف الشرق قبل هذا التاريخ فاتحين لم يتصفوا كلهم بالتسامح . وقد اعتبر الاشوريون حروباً عدة جرت بين الامم معارك تنشب بين الآلهة . وعندما سبى نبوخذنصر البابلي اليهود الى عاصمته قسا بشراسة ضد الهيكل اليهودي . ولا يفهم سلوك الاخمينيين على حقيقته الا اذا قورن بمثل هذا السج الذي سار عليه سلفاؤهم مباشرة . وحالما وصل كورش الى بابل قدم « خضوعه لبعل - مردوك » كما اطلق في الوقت نفسه سراح العبرانيين وساعدهم في تعمير مناطقهم . ولم يقدم خلفاؤه على اي اضطهاد ، ولم يفرصوا آلهتهم بالقوة ، لا بل أدوا لسائر معتقدات امپراطوريتهم الاحترام التقليدي الذي كان يؤديه الملوك الوطنيون : وهكذا قدمت في اورشليم كل يوم ذبيحة على اسم ونفقة الملك ، ولم يلحق اي اذى برجال الكهنوت في مصر وبلاد بابل الا بقدر ما اهتموا به من تحريض على الثورة . وان لم يعرف العالم القديم ، منذ هذا التاريخ ، الا بصورة استثنائية التعصب الديني ، فاذك يعود الى المثل الذي ضربه الملوك الفرس .

ولم يكن سلوك هؤلاء الملوك في هذا المجال تعبيراً عن عدم مبالاه او بصورة اولية عن كياسة سياسية ، بل اقتسالا لديانة اعتبرت على غير مستوى .

ويصعب علينا تحليل خيوط الكمة التي تؤلف الديانة الفارسية القديمة . وان لم نقس هذه الديانة امورا أساسية من الديانات الشرقية فانها تحتوي مع هذا على عناصر مختلفة لا نجد لتفسير الكثير منها معلومات مستقلة . وجمعت هذه المبادئ في كتاب ريدافسته المقدس . وقد نعث على بعض العناصر الهندو - اوروية التي نجدها في كتاب ريفندا الهندى ، وهذه العناصر هي قليلة . ولكن هناك ايضاً مبادئ آرية محتمة ، اي خاصة بالايانيين الغربيين ، والتي لم تعم بواسطتهم القبائل الايرانية الاخرى الا في زمن متأخر . وقد اتى احد المصلحين ، زرادست ، بتعاليم في غاية النقاوة ، ولكن شوها جمهور المؤمنين بها . وتطرح هذه الوقائع اسئلة لا عد لها ، دون ان يجدوا لها حلاً لتاريخه . وتختص اهم هذه الصعوبات زرادشت نفسه . فقد لاقت تعاليمه دون شك ، وهو بعد على قيد الحياة ، نجاحها الاكبر في ايران الشرقية . ولكن اين بالتدقيق ؟ وخاصة في اي زم ؟ ان اللبدي كساتوس هو اول الكتاب المعروفين في التاريخ الذي يأتي على ذكره ويرجعه الى القرن الخامس . ويرجع به المؤرخون العصريون الى عهد اكثر قدماً ، ويذكرون عادة القرن السابع او القرن السادس . وعلى كل يعجب المرء

كيف تجاهلت ديانة الاخمينيين الرسمية زرادشت وتعاليمه .

ان جوهر عقيدة المصلح هو التوحيد بانقى مظاهره . فهي لا تقز الا باله واحد هو اورموزد ، لا قياس لعظمته وقدرته وروحانيته . وتوجد معه وحدات مجردة هي اشكال منه او مبادئ صادرة عنه . ولكن في منزلة اقل من منزلته يتناحر منذ خلق العالم روحان ، احدهما للخير والآخر للشر ، ولا يعرف نزاعها مهادفة وهو يشمل كل شيء . وعلى الشخص ان يحارب عناصر الشر في ذاته وخارجاً عنه ، وعلى هذا الاساس سينال السعادة بعد الدينونة الاخيرة . وتنحصر العبادة في هذا الجهد اليومي المتواصل متحررة من كل تقادم او ذبائح مادية ! « ان رجل التقوى هو قديس : وهو يزيد العدالة بالعقل والكلام والعمل والضمير » . وهكذا يشعر المرء الى اي قمة اوصل هذا المصلح ، الذي يشتمله الغموض ، فكرته .

وتتغير عن هذه المبادئ ديانة الاخمينيين الرسمية التي تظهر لنا من خلال النصوص الملكية . فهي تعتبر اورموزد « اكبر الآلهة » ، ويتحدث داريوس الاول عن « الآلهة الاخرى الموجودة » . انه تعبير غامض وهو يشمل دون شك آلهة غريبة - وهذا ما يفسر لنا النسامح نحوها - وآلهة ايرانية اخرى . ويجب انتظار حفيد داريوس ، حوالي منتصف القرن الخامس ، لنعرف بالتدقيق اسمي إلهتين من هذه الآلهة الايرانية وهما ميترا وأناهيستا . وعلى كل يبقى اورموزد الاله الاعظم ، الاله الملكي بالدرجة الاولى ويمثلونه برسم قرص شمس مجنح يخرج منه نصف الشخص الاعلى يحمل لحية ويكفل التاج هامه . ويشتق هذا الرسم من الرموز الاشورية الدينية . وبما انه خالق العالم ، بما فيه الارض والسماء ، فهو اكثر من الشمس : افه النور السماوي « السيد الحكمة » منظم السعادة والعدالة ، الذي يأمر بحب الحقيقة وبغض الكذب . ومع وجود هذه الغزوة نحو المبادئ الروحانية الطاهرة فقد قدم الملوك الذبائح ، اقله باشعالم شخصياً النار التي لا تنطفئ على المذابح .

وقد ابقت الديانة الشعبية ، التي استمرت على شيء كثير من الحيوية ، المركز الاعلى لاورموزد ، ولكنها تلتصق به جبهة من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة والعناصر . واكثر من هذا ، فهي تتخيل ، مقابل عالم الاله الاكبر ، عالم النور واليسر والخصب ، عالماً للدجاجير والاشراك والشياطين ، ويسير هذا العالم اهرمان . انها تؤمن بضرورة جهود الانسان الروحية وبدينونة النفس التي قد تفضي الى فردوس افراح مادية جداً . ومع هذا فهي تعتمد كثيراً على طقوس العبادة التي يقوم بها ، او اقله ينظمها ، رجال الكهنوت اعني الجوس ، وتقر ايضاً عبادة النار والانايد والتقادام والذبائح الدموية التي ندد بها زرادشت بكل شدة . واستناداً الى هذه المعتقدات فهم لا يحرقون الجثث ولا يدفنونها كيلا يدنسوا النار او التراب ولكنهم يلقونها في اماكن صحراوية . ولا نستطيع لسوء الحظ تحديد الوقت الذي فرضت فيه هذه الفكرة نفسها بتلك القوة .

ان الديانة الفارسية زادت على مجرى التفكير القديم افكاراً جديدة منها الحياة الفكرية الدينونة الاخيرة ومبدأ المثنوية ، هذا مع العلم بانها شددت اكثر من الديانات

الآخرى على المبادئ الأدبية . أما في باقي مجالات الحياة الفكرية فلم يأتِ الفرس بأي جديد . ولا غلغ في هذا المضمار لإبداء الحكم إلا كتاب زندافستا ، وهو كتاب ديني تناقل القوم أجزاءه القديمة بالسماح ، لأنهم لم يلجأوا إلى الكتابة إلا في أواخر القرن السادس .

ولا يحتوي هذا الكتاب على أمور علمية . لقد كان لدى الفرس أطباء دون شك . وداوى بعضهم بالنباتات ، أما الآخرون فلجأوا إلى التعاوير الطقسية . ولكن جلب الملوك إلى بلاطهم أطباء يونان أو مصريين . ولم تظهر إيران كمهد للعلوم أو لشبه العلوم التي كلف بها الغرب وأطلق عليها اسم زرادشت إلا في زمن متأخر ، أي بعد العصر المسيحي : ومنذ هذا الزمن اتخذت كلمة « مجوسية » معناها الحالي ، وقد اشتقت من اسم الكهنة الإيرانيين .

ولا يبدو بان حياة الإمبراطورية الفكرية الحقيقية كانت فارسية ، لا بل لم يهتم كثيراً الفرس بهذه الحياة . وقد أصلح التقويم البابلي مرة أخرى سنة ٣٦٧ ق.م. إذ حددوا السنين والفصول حيث كان يجب حشر الشهور التي قرروا زيادتها ، وذلك ضمن إطار الوحدة التي تشمل تسعة عشر عاماً . ولكن فضل الفرس الوحيد في هذا المضمار هو السماح لعلماء الفلك من الكهنة متابعة أبحاثهم . وظهر بعض الإيرانيين ميلاً للفلسفة والعلوم ، حتى اليونانية منها . وقد تحدثوا عن وجود شلة منهم بالقرب من أفلاطون في أواخر أيامه . ولكن بقيت مثل هذه العناية أمراً استثنائياً ، ولا يظهر بان أحداً من الملوك رغب فيها .

ان الحالة في مجال الفن على غير ما ذكر أعلاه ، وإن كان مؤكداً بأنه لم يحتل إلا المن منزلة محدودة في الحضارة الفارسية . اننا لا نجد تماثيل للآلهة ، أو هياكل ، إذ اكتفت الآلهة بالمذابح ، لا بل زهدت بهذه الأخيرة مراراً . ولا نجد أيضاً قبوراً ، للأفراد أقله . وحسب علمنا لم يشيد الشخص لنفسه بيتاً كبيراً ، ولم يأت بأي ابتكار في هذا المجال من حيث الهندسة أو الزينة . ومع هذا يوجد فن فارسي ، إذ وجد ملوك فرس لم يستطيعوا التخلي عن التقاليد التي تربطهم بالملوك الشرقيين . ولأنهم فاقوهم قوة وغنى ، وقد أعلنوا أنفسهم « الملوك الكبار ، ملوك الملوك » ، أرادوا أقله مساواتهم بما خلدوا من آثار . لا بل فرض عليهم مثل هذا السلوك مقامهم في عين رعاياهم الإيرانيين الذين اعتقدوا بان الذي ينتخبه اورموزد هو من جوهر سام جداً .

وهكذا تعرض الفن الملكي ، في مراحل التصميم والتنفيذ ، إلى تمجيد الملك والسلالة والسلطة الملكية . ولكن لم تبرز هذه الأهداف منذ البدء : ولم يكن كورش بحاجة إلى شيء من هذا وكانت عاصمته يومئذ بسرغاد مدينة متواضعة . وغدت المبادرة في هذا المجال لداريوس الأول الذي نظم الإمبراطورية ، فتبنى الأنواع الثلاثة من المباني التي لم تفصل قط في دول أخرى عن فكرة السلطة الملكية وهي : النقوش بشكل ضخيم وبارز التي تذكر بأعمال الملك الباهرة ، ثم القصر وهو الإطار المهيّب للحفلات والبلاط ، وأخيراً القبر الذي يحمي شخص الملك من

الاهانات بعد موته . ولكن كان هذا الهدف الاخير رمزياً إذ لم يسع الفرس ، أو سوعا قليلاً جداً ، للاحتفاظ بالجثة الطبيعية . وفعلًا كان مبنى ، على شيء كثير من البساطة ، قد جرى ما تبقى من كورش . ولكن أيام داريوس وجد تقليد في غاية السمو يؤكد بان الملك لا يخضع للناموس الطبيعي .

وغدا الفن الفارسي ، وهو فن ملكي ، متعدد الناذج والأصول ، إذ لم يكن لايران تقاليد عريقة ، بينما عرف الشرق الذي خضع للفرس بغناه في هذا المجال وبغنى اختباره . وقد قدمت المناطق المواد الاولى والمعملة



الشكل ١٧ - منطقة برسبوليس

ورجال الفن . ولنصغ الى داريوس الاول في سوزه : « لقد أتيت من بعيد بالمواد التي بنيت بها هذا القصر في سوزه . والشعب البابلي هو الذي حفر الارض وكوّم الحصى ، وجلب الارز من لبنان . وقد أتى به البابليون حتى بابل ، واصله من بابل « الاونيون والكاريون » - وهم مسبيون - الى سوزه . وأتوا بخشب الصندل من الهند ، والذهب من سرديس وبكتريه ، واللآزورد والزنجفر من سوغديانه ، والفيروز من بلاد خوارزم ، والفضة

والرصاص من مصر ، والمواد التي تزين الجدران من ايونية ، والعاج من اثيوبية والهند ، والعواميد الحجرية من كاريه . وكان نحّاتو الحجارة ايونيين وليديين ، والصاغة ليديين ومصريين وعمّال الخنزف بابليين ، ومزيناو الجدران ماديين ومصريين . لقد انجز عمل باهر في سوزه . ليحمي الإله اورموزد... » وقد أتى هؤلاء الرجال ، وهم مختلفو الاجناس ، بالحلول التي ارتأوها وعملوا حسب فنونهم . واننا نجعل الشخص الذي نستق هذه الاعمال . ولكن على كل برز القصر وكأنه مختصر للامبراطورية واتخذ من ثم هذا الفن قيمة رمزية .

ولم يستعمل احد غير داريوس النقوش الهائلة التي توخت التذكير . انها نقوش «هستون» الصخرية وقد حفرت على علو مئة متر وعلى صخرة تشرف على احدى ممرات جبال زغروس ، وهي الطريق التاريخي الكبير بين بلاد آشور وبلاد ماداي . وتغنى هذه النقوش بالانتصار الذي احرزه داريوس على الثائرين الذين هددوا أمن وسلامة الامبراطورية غداة تسلمه العرش . وفي اعلى النقوش رسم يرتفع فوقه رمز أورموزد: قائدان والملك وعشرة من الاعداء وقد أُلقي

أقدم أرضاً وتحت القسعة الآخرون ووضع الجبل في عنقهم ، وفي الأسفل نقرأ كتابة بلغات ثلاث تسرد الحوادث . ولم يستطع احد ان يقرأها وهو على الطريق ، وغدا الجهد المبذول لقراءتها اشادة عظمى بمعظمة الملك وجبروته .

والقبور الملكية في برسبوليس ونكش - اي - روستم *Naksh - i - Roustem* هي صخرية أيضاً ، وقد أخذوا فكرتها الاولى عن القبور المصرية . ولكن لم يتسع داخلها إلا الى رواق وغرفة دون نقوش او رسوم ، وقد بقي من ثم في غاية البساطة . وصبوا جل اعتنائهم على الخارج . وقسمت الصخرة ، وقد برزت على شكل صليب يوناني كبير ، قسمين عليها النقوش . ويمثل القسم الذي في الوسط ، وهو الاكثر عرضاً ، مجموعة من العواميد تحمل افرزاً : أي واجهة قصر ينشق في وسطها باب القبر . ويمثل القسم الاعلى الملك امام مذبح النار الذي يعاونه اورموزد ، وترى الملك على دكة يحملها رجال يرمزون الى المرزبات .

والقصور هي اشد تأثيراً أيضاً . وقد أراد كل ملك ان يشيد له قصرأ خاصاً في العواصم الوطنية ، او أقله زيادة شيء جديد على مباني أسلافه . وهذا ما يفسر لنا كثرة القصور وتشابك اجزاها . وهذا ما يشرح لنا أيضاً السرعة التي جعلتهم يستعملون الآجر للجدران طبقاً للتقاليد الاشورية ، والاحتفاظ بالحجارة لاطار الأبواب ، مع اننا في مناطق كبلاد فارس حيث لا تنقص المواد الصلبة للبناء . وهذا ما يعلل لنا اخيراً عدم اتمامهم الاعمال مراراً ! ففي برسبوليس بالذات نرى اجزاء الأساطين انتهوا من اعدادها ولكنهم لم يركزوها في مواضعها .

وتعرفنا خاصة اعمال التنقيب الحديثة بقصر سوزه الكبير وبمجموعة المدينة الملكية المهيبة في برسبوليس . وبعد ان شيد داريوس هذه المدينة الاخيرة لتصبح عاصمة السلالة بدأوا رويداً رويداً يتخولون عنها لمصلحة سوزه ، ولم يظهر فيها الملك إلا نادراً جداً وذلك في مواسم الاحتفالات الرسمية . ولكن بقيت برسبوليس مع هذا رمزاً للمملكة الاخمينية اكثر من المدن الاخرى ، وعلى هذا الاعتبار احرقها صاحب الاسكندر عندما مروا فيها وذلك ثأراً لما سببه الفرس من خراب في بلاد اليونان اثناء الحروب المادية . وتستند هذه المدينة الى الجبل وتشرف على سهل واسع . وهي تمتد على فسحة مسطحة نصف اصطناعية يبلغ طولها ٥٣٠ م وعرضها ٣٣٠ م إذ قد فرّض الصخر وسويت حافاته حيث أقيم جدار من الحجر النحيت . ولم يحشوا الفيضانات ، ولكنهم حذوا حذو تقاليد بلاد الرافدين فشيّدوا القصور الملكية في مكان يشرف على المدينة التي يقطنها عموم السكان .

وغدت قاعة الاستقبال ، «الأبادانة» ، حيث يجلس الملك على عرشه تحيط به هالة من الوقار والعظمة اهم اجزاء قصر سوزه وبرسبوليس . وتحمل سقف هذه القاعة المصنوعة من خشب الارز اعمدة تعد قليلة العدد نسبة الى مقاييس القاعة - ٣٦ عموداً فقط في مربع يبلغ ضلعه

٤٣٥٠ م - ورفيعة جداً نسبة لعلوها - قطر القصر ١٦٦٠ م لعلو ٢٠ م تقريباً - ونسقوا هذه « الغرفة ذات المئة عمود » على غرار قاعات الهياكل المصرية ، ولكن خفة وزن السقف سمحت بالابقاء على شكل العمود الرشيقة . ويوجد تجديد آخر سببه تاج العمود الذي يمثل ، فوق نقوش حلزونية الشكل ، رؤوس ثيران حائية .

وزاد فن التزيين في عظمة هذه الهندسة ، وقد اعتمد كثيراً على اللون ، لا بل على الحجارة الكريمة أو الذهب . ففي سوزه رسموا صفوفاً طويلة من الجنود والاسود او الحيوانات الخيالية على قطع من الآجر النائي ، والمطلي بالطين وفقاً للطريقة البابلية ، والذي يظهر في اجزاء السلام والممرات السفلى . أما في برسيوليس فقد اعادت الرسوم المسطحة التي صورت على الحجر باظهار الجنود او المكلفين الذين يحملون الى السيد ، وهم في زيهم الوطني ، ضرائب اوطانهم . وهناك ايضاً رسوم ونقوش نافرة - وهذا ما يحدث نادراً جداً - تستلهم الرسوم الأشورية : الثور المجنح وله رأس بشري ، صراع الاسد والثور ، قتل وحش هائل بيد الملك . ولا نرى اي رسم او ظل رسم لامرأة ، بل نجد دوماً رسوم الملك ورعاياه وجنوده ووثوته وعظمته دون عطفه .

ولذا يبقى كل شيء في هذا المضمار على وتيرة واحدة ، وإن هم سعوا لبعث الحياة فيه . ومع هذا يجدر بنا ذكر تأثير الفن اليوناني على ما سبق لنا وذكرنا من تأثيرات عدة ، وارت بدا هذا التأثير محدوداً جداً نسبة لغيره او لم يبرز بصورة عملية الا في تموجات بعض الثياب والستائر ، ولكنه يوجد على كل حال وقد ضم الملك الى امبراطوريته جزءاً من العالم اليوناني وأتاه رجال فن من الاجزاء التي بقيت حرة ؛ غير ان احداً منهم لم يكن من الدرجة الاولى الممتازة ، أو ان احداً منهم لم يستطع ان يعبر كما يرغب عن المواضيع الرسمية : ولا يلاحظ وجودهم هنا وهناك الا في تجميع أو طية قطعة القماش الذي يغطي الجسم .

تعايشت معاً الحضارة الايرانية والحضارة اليونانية الكلاسيكية ، ولم  
الميرة الايرانية والهلينية  
تحل المنازعات التي نشبت بين الشعبين دون احتكاك هاتين الحضارتين .

ولكن حذار ان نبالغ في مدى الاقتباسات التي أخذت عن الحضارة الهلينية . لقد سمح الملوك لليونان بالتجول في الشرق والوقوف على حالته . وما قام به هيرودوتس هو اكبر شاهد على هذا التسامح . ولكن تابع الفن اليوناني تطوره وكان قد تجاوز عهد تلمس طريقه . وعرف اليونان الهند بواسطة فارس ، ولكن بقيت معرفتهم لها سطحية جداً : وان وجد عملياً التأثير الهندي فلم يتجاوز حدود بعض المبادئ الطبية وبعض الادوية . ان أفلاطون عرف « فكرة الثنائية » الزرادشتية ، وقد استهوته . ولكن انتهى كل شيء عند هذا الحد ، وعلينا ان ننتظر عدة قرون لنلاحظ انتشار عبادة ميترا وعلوم السحر السرية المنسوبة الى « المجوس » الذين لا يمثلون مع هذا ، الحضارة الايرانية في القرنين الخامس والرابع .

وبصورة معاكسة فلم المستهزأ الحضارة الهلينية ، وبصورة سطحية فقط ، إلا بعض أفراد الطبقات الحاكمة الدين رأوا فيها أساليب عيش رخاء ورفاهية لم يعرفوها قبلاً ولم يريدوا ان يحرموا أنفسهم منها . وفي زمن الحرب التي انتهت باندحار « سلامين » كان أحشوروش الملك قد وضع يده على بعض الآثار الفنية وأتى بها الى سوزه . ودخلت نساء يونانيات الى حرم الملك أو تزوجن مراربه يحكمون المقاطعات الغربية . وخدم بعض الاطباء اليونان في بلاط ملك فارس من امثال ديموسيدس الكروتوني *Democédès de Crotone* في القرن السادس وأبولونيد من جزيرة كوس *Apollonide de Cos* في القرن الخامس ، ثم كتيدياس *Cléstas* ؛ ولكن يقال بان ابقرات *Hippocrate* رفض عروض أحشوروش المغربية . وتجنبد مرتقة يونان كثيرون في صفوف الجيش الفارسي في القرن الرابع ، وقد لعب بعض من قوادهم دوراً مهماً ، دون ان يكسبوا مع هذا ثقة الملك الكاملة . ولم تجد التجارة الأثينية أي قيود . وباستطاعتنا ان نضيف الى هذه الحقائق حلقات عدة ولكن دون ان نغير شيئاً من النتيجة . وان غدا تقدم الحضارة الهلينية مؤكداً في آسية الصغرى الغربية ، حيث كانت قد استألت اليها السكان الوطنيين ، فان الايرانيين مع هذا لم يستجيبوا كثيراً لهذه الحضارة ..

وفي زمن حروب الاسكندر تواجه الشعبان . وكان كل منهما يمثل عالماً مستقلاً وحضارة مختلفة . ولم تستطع جدارة البطل كما لم يتوصل نبله ان يشيدا جسراً دائماً بينهما .